مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٤) العدد(٤) ٢٠٢٠
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (4) No. (4) 2020

البنية الحدثيّة للخبر السرديّ في كتاب معجم الأدباء لياقوت الحمويّ والتسريد

الدكتور يوسف زرده*

الدكتورة هيفاء ديّوب**

عبدالرحمن مرعي السليمان العبدالله***

(تاريخ الإيداع ٨/ ١٢ /٢٠١٩ . قبِل للنشر في ٣٠ /٦ / ٢٠٢٠)

□ ملخّص □

تتناول هذه الدراسة موضوع التشكيل السرديّ للخبر في كتاب (معجم الأدباء) لياقوت الحمويّ، فالنقد الحديث بمعطياته الجديدة، كثيراً ما كشف عن نقاط مضيئة في تراثنا العربيّ، وأسهم في التعامل مع الأثر الأدبيّ بوسائل إجرائيّة تتناسب وهوية المسرود. ويعد السرد فرعاً من فروع الشعريّة المعنية باستنباط القوانين الداخليّة للأجناس والأنواع الأدبيّة، والنظم التي تحكمها، والقواعد التي توجه أبنيتها وتحدّد سماتها، ومن هذه الأنواع الأدبيّة الخبر. والخبر وحدة سرديّة مستقلة تجسّم فعلاً أو حادثاً ما. وسنقف في هذه الدراسة على التشكيل السرديّ الخبر، فنعرض تعريفاً بالسرد والخبر لغة واصطلاحاً، ثم نبحث في الخبر بوصفه وحدة سرديّة، فنقوم بتصنيف الخبر تبعاً لبنيته الحدثيّة إلى الخبر البسيط والخبر المركّب، ثم نذكر الآليات التي يتم بها تسريد صنوف القول الأدبيّ وغير الأدبيّ في الخبر، وأخيراً ننتهي بقراءة النتائج التي توصّل إليها البحث.

الكلمات المفتاحيّة : السرد، الخبر ، التشكيل السرديّ، بنية الخبر، الخبر البسيط، الخبر المركّب، تسريد الخبر.

* أستاذ مساعد – قسم اللغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقية – سوريا .

**مدرسة – قسم اللغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقية – سوريا .

***طالب دكتوراه – قسم اللغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقية – سوريا .

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٤) العدد(٤) ٢٠٢٠
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (4) No. (4) 2020

The Event Structure of the Narrative averral in the Book of the Literature Dictionary by Yakoot al-Hamwi and Narrativization

Dr.yusuf zaradah *
Dr.Haifaa Dayoub**
Abd alrahman marei al-suleiman al- abd allah ***

(Received 8 / 12 /2019 . Accepted 30 / 6 / 2020)

□ ABSTRACT □

This study deals with the narrative formation of the averral in the book (Dictionary of Writers) by Yakoot al-Hamwi, modern criticism with its new data, often revealed bright points in our Arab heritage, and contributed to deal with the literary impact by procedural means commensurate with the identity of the listed. The narrative is a branch of poetry designated to derive the internal laws of the races and literary genres, and the systems that govern them, and the rules that guide their buildings and determine their features, including these literary types The averral.and The averral is an independent narrative unit that embodies an act or incident. In this study, we will look at the narrative formation of The averral. We present a definition of narration and averral by language and terminology. Then we look at the averral as a narrative unit. We classify the averral according to itsevent narrative structure to the simple averral and the composite averral. Then we mention the mechanisms by which the literary and non-literary sayings of the averral are narrated. , And finally we finish by reading his findings.

key words : Narrative, Averral, Narrative formation, Structure of the averral, Simple averral, Composite averral, Narrativization.

*Assistant Professor , Arabic Languag , Faculty of Arts and Humanities , Tishreen University Department , Latakia , Syria.
**Lecturer , Arabic Languag , Faculty of Arts and Humanities , Tishreen University Department , Latakia , Syria.
*** Ph.D.Student , Department of Arabic Language , Faculty of Arts and Humanities , Tishreen University , Latakia , Syria.

مقدّمة:

الخبر نوعٌ أدبيّ له خصائصه المميّزة التي تلحق بنيته فترسم هيكله وأنظمته الداخليّة على وفق قواعد خاصّة، إلّا أنّ هذه الحدود أخذت تضعف إزاء تغيّر النظر إليها فتغيّرت النظرة إلى النصّ الأدبيّ القديم، وقد طرح النقد قضيّة مفادها مدى صلاحيّة المناهج الغربيّة لدراسة نصّ عربيّ على الاختلاف بين الاثنين، فوجد أنّ النصّ العربيّ القديم زاخر بالسرد وأنماطه ومستوياته وتقنياته، فهو قادر على استيعاب التجربة والتعبير عنها. ولذلك وجدنا نصوصهم ـ وهذا ما سار عليه الكتّاب في العصر العباسيّ عموماً ـ زاخرة بالأخبار والقصص وغيرها.

وبهذا المفهوم يمكن تصنيف الخبر ضمن منظومة الخطابات الساردة التي تتخذ من آليات السرد عناصر مكوّنة لها، أي " تلك العناصر التي يمكن اعتبارها ماثلة في النصّ محدّدة لجنسه الفنيّ، ومكيفة لطبيعة تكوينه، وموجّهة لمدى كفاءته في أداء الوظيفة الجماليّة على وجه التحديد"[١].

أهمية البحث وأهدافه:

تأتي أهمية البحث من خلال:

١. تقديم رؤية جديدة للنصّ التراثيّ من خلال البحث في كتاب تراثيّ قديم من منظور نظريّة نقديّة سرديّة حديثة.

٢. بيان بنية الخبر ومكوناته والآلية التي يتم بها تسريده، لأنّ بنية الخبر لها من الدلالات والإشارات ما يعين على تبيان أنواعه وتحديدها، وتحمل من اللمحات ما تبين وظائفه وغاياته.

ويهدف البحث إلى دراسة الأخبار واستشفاف بنياتها ومكوناتها، والكشف عن الآلية التي يتم بها تسريد القرآن والحديث والشعر والأمثال وغيرها من ضروب القول الأدبيّ وغير الأدبيّ ومن المعارف ومظاهر الثقافة السائدة وتمثّلها بإكسابها الخصيصة السرديّة التي تندرج بواسطتها في مجال الأخبار.

منهج البحث:

يعتمد البحث المنهج الوصفيّ التحليليّ الذي يقوم على استقراء الأخبار وتحليلها، ومن ثم مناقشتها وفق الوسائل والإجراءات المتاحة في الحقل الأدبيّ السرديّ، وصولاً إلى معرفة بيناتها ومكوناتها، والآليات المتبعة في تسريد النصوص الأدبيّة وغير الأدبيّة، ممّا يساعد على الكشف عن المعطى المضمونيّ للمادة السرديّة (الخبر).

أولاً ـ السرد والخبر لغة واصطلاحاً:

السرد لغةً تقدمةُ شيءٍ إلى شيءٍ، تأتي به متّسقاً بعضُهُ في أثرِ بعضٍ متتابعاً، وقيل سردَ الحديث ونحوهُ يسردُهُ سرداً إذا تابعَهُ. وفلانٌ يَسْرُدُ الحديث سرداً إذا كان جَيِّدَ السياقِ له[٢]، ومن المجاز نجومٌ سَرْدٌ: متتابعةٌ، وتَسَرَّد الدرُّ: تتابع في النظام، وماشٍ مِسْرَدٌ يتابع خطاه في مشيه[٣].

أمّا في الاصطلاح فالسردُ خطابٌ غيرُ منجزٍ، وله تعريفات شتى منها: " إنّه وصف أفعالٍ يستمد السارد فيه لكلّ موصوفٍ فاعلاً وقصداً وحالةً وعالماً ممكناً وتبدّلاً وغاية. فضلاً عن الحالات الذهنيّة، والشعوريّة، والظروف المتّصلة بها، والسلسلة اللفظيّة المشفّرة التي يرسلها المؤلِّف، يقوم المتلقي بحلّها في ضوء السياق الثقافيّ، وبذلك يشكّل عالماً خياليّاً يستمد دلالته من المضمرات النصّيّة التي تُستثار بعلاقاتها المختلفة بالمرجع"[٤].

---

[١] مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، د.ت، ص٨٨.

[٢] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت، مادة (س ر د) .

[٣] أساس البلاغة، جار الله الزمخشريّ، دار الكتب المصريّة ، مصر، ١٩٢٢م، مادة (س ر د) .

[٤] موسوعة السرد العربيّ، عبدالله إبراهيم، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٣.

والخبر لغةً ما آلَ إليكَ من نبأٍ عمّن تستخبره، وهو النبأُ، وخبرتُ الأمرَ إذا عرفتُهُ على حقيقتِهِ، وأخبرَهُ خبورَهُ أنبأَهُ ماعندَهُ[٥]. وهو بذلك أقرب ما يكون إلى الكلام المستعمل لنقل الأحداث والأقوال إلى سامع أو قارئ، وهذا الكلام يقوم به راوٍ.

وأما في الاصطلاح فالخبر فنّ قصصيّ يغلب عليه قول الحقيقة، ويشير إلى سرد شيءٍ من التاريخ، وما لبثت أن داخلته المعلومات المزيّفة، أو المختلفة، أو الخياليّة[٦].

والخبر في السرد يعرّف بأنّه "وحدة سرديّة مستقلة تجسّم فعلاً أو حادثاً ما وتبين موقفاً ما من ظاهرة تبنى على معايير أدبيّة خاضعة لمبدأ التراكم والترابط في علاقتها بالوحدات الأخرى، ويقتضي الخبر وظيفة مركزيّة مؤوّلة من بنيته ذاتها، أو من سياقات التراكم، أو من الوظيفة، أو من التقينة، أو من هذه مجتمعة، وهذا مايفسّر عدم مطابقة كثير من الأخبار لمروياتها من حيث الحجم، والمادة، والوظيفة"[٧]. وبذلك هو يدور خارج الزمان والمكان، ومنفتح وقابل للترهين كلّ لحظة، وكامل التحوّل، ويتميّز بقلّة تنوّع صيغ الخطاب فيه، وهيمنة صوت السارد.

ثانياً: الخبر وحدة سردية:

لمّا كان الخبر وحدة سرديّة مستقلة اقتضى ذلك أن يكون فيه ملفوظات حالة " وهي التي تصل بين الشخصيات والصفات"، وملفوظات فعل " وقوامها الأحداث التي تغيّر من الحالات"[٨]. أي أنّ الخبر بوصفه نصّاً سرديّاً فهو ليس إلّا سلسلة من التحوّلات التي تطرأ على ملفوظات الحالة بوساطة ملفوظات الفعل، لذا سنحاول استخراج مقوماته وخصائصه انطلاقاً من بنيته الحدثيّة وصولاً إلى تسريد الخبر، إلّا أنّ هذه الخصائص لا تتكشف لنا من خلال النظر في الخبر معزولاً عن سائر الأخبار، بل يتعين علينا الكشف عنها من خلال حركة الخبر في الزمان وتعدد سماته وتجددها.

١. البنية الحدثيّة:

ونقصد بالبنية الحدثيّة هنا مجموعة الأحداث والشخصيات التي تمثّل ضرباً من المادة الخام التي بها قوام السرديّة قبل أن تتجسّد في نصّ ما.

وإنّ محاولة الوقوف على بنية حدثيّة واحدة في الخبر أو حتّى على عدد من البنى محدود أمرٌ لا طائل من ورائه. لذلك سنسعى إلى استخراج أكثر البنى تواتراً. وإنّ الظاهرة الأبرز التي تسترعي انتباهنا في الأخبار الواردة في مؤلّفات ياقوت الحمويّ أنّ القسم الأكبر منها يقوم على بنية بسيطة قائمة على ثنائيّة سرديّة واحدة ترد مفردة أو تتكرر في الخبر الواحد. وهذه الثنائيّة هي الخبر والاستخبار، ويطلق عليها بعض الباحثين ـ مثل محمد القاضي ـ بنية القول. فالخبر يقوم عادةً باستعادة قول مأثور أو نقل حوار طريف بين شخصين. وقد يتدنّى حظّ السرديّة في مثل هذا القول فيقتصر أمرها على ذكر القول مباشرة، ومن ذلك: " وقال أبو عمرو بن العلاء : قيل لمنذر بن واصل: كيف شهوتك للأدب؟ فقال أسمعُ الحرفَ منه لم أسمعه فتودُّ أعضائي أنَّ لها أسماعاً تتنعم مثل ما تنعمت الآذان؛ قيل وكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأةِ المضلَّةِ ولدها وليس لها غيره، قيل: وكيف حرصك عليه؟ قال: حرصُ الجَمُوعِ المَنُوعِ على بلوغ لذته في المال"[٩]. ومن ذلك أيضاً:" قال الجاحظ: عيوب المنطق التصحيف وسوء التأويل والخطأ في الترجمة، فالتصحيفُ يكون من وجوه التخفيف والتثقيل ومن قبل الإعراب ومن تشابه صور الحروف، وسوءُ التأويل من الأسماء

[٥] لسان العرب، ابن منظور، مادة(خ ب ر).
[٦] من أشكال السرد العربيّ القديم: الخبر الأدبيّ، جمال حسين حمّاد ، مجلة البيان، الكويت، العدد ٤٨٣، ٢٠١٠م، ص١٧.
[٧] أدبيّة النصّ السرديّ عند أبي حيّان التوحيديّ، حسن إبراهيم الأحمد، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٩م، ص٣٠٢.
[٨] المختار من نوادر الأخبار، محمد أحمد المقّري، تح: يونس لشهب، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠١٥م، ص١٣.
[٩] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، تح: إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط١، ١٩٩٣م،٢٢/١.

المتواطئة أي أنّك تجد اسماً لمعانٍ فتتأول على غير المراد، وكذلك سوء الترجمة. واعلم أنَّ مذاكرة العلم عونٌ على أدائه وزيادة في الفهم، ولا بدّ للعالم من جهلٍ أي أن يجهل كثيراً ممّا يُسألُ عنه، إمّا لأنَّهُ ماسمعه أو نسيه"[١٠].

وقد يمهد للقول أو الحوار بوضع سرديّ تصبح فيه ثنائيّة الاستخبار والإخبار مندرجة في سياق ثنائيّة أشمل منها، أي لا يقدّمهما مصمتين إنّما يمهّد لهما بمقدّمة تُنشئ وصفاً أوليّاً يكون من شأن القول أو الحوار أن يقلبه فيصبح الكلام ذا دور تحويليّ، سواء أوقع التعبير عن ذلك الانقلاب أم لم يقع. ومن الأمثلة على ذلك الخبر الآتي:" كان عبدالله بن الحسن العنبريّ قاضي البصرة يأتي جاراً له يقول بالنجوم، فدخل قلبَهُ شيءٌ، فجاء الخليل فسأله، فقال له الخليل: أخبرني عن الحاء من أين مخرجها؟ قال: من الحلق. قال: فأخبرني عن الباء من أين مخرجها؟ قال من طرف اللسان. قال: أفتقدر أن تخرج هذه من مخرج تلك؟ قال لا. قال: قم فإنّك فائق، ثم أنشأ يقول:

أبلغا عنيَ المنجم أنّي كافر بالذي قضته الكواكبْ
عالم أن ما يكَون وما كا ن فَحَتْمٌ من المهيمن واجبْ"[١١]

وجليّ في هذا الخبر أنّ القول الصادر عن الخليل وإن جاء إخباراً وجواباً عن استخبار القاضي عبدالله، فإنّه اضطلع فوق ذلك بفعلٍ تحويليٍّ وقلب صورة القاضي من الشكّ بالنجوم إلى الكفر بها.

والسبب في كثرة هذا الضرب من الأخبار الذي يتخذ من إيراد الأقوال المأثورة نثراً كانت أم شعراً أو نقلاً لحوار طريف بين شخصين هدفاً لا تحيد عنه هو أنّ هذه الأخبار تنقل ما أُثِرَ عن القدامى والمحدثين من جزل القول، ولطف الاعتذار، ورقيق العتاب، وحسن النصح، وحفي التعريض، وصريح الفخر، وعنيف الرد وغير ذلك. وهذا ما يفسّر لنا قلّة حظّ هذه الأخبار من السرديّة واقتصار دور الراوي على إسناد الحديث إلى قائله سواء أكان معروفاً أو مجهولاً. ومن الأمثلة على نسبة الحديث إلى مجهول قوله: " حُكِيَ عن بعض الفقهاء أنّه كان يقول: حبٌّ من الناس حبّ من الله، وما صلح دينٌ إلا بحياء ، ولا حياءٌ إلا بعقل، وما صلح حياءٌ ولادين ولاعقلٌ إلا بأَدب"[١٢]. وقوله: " قالوا: والفرقُ بين الأديب والعالم أنّ الأديب مَنْ يأخذ من كلِّ شيء أحسنه فيألفه، والعالم من يقصد لفنّ من العلم فيعتمله"[١٣]. وما أكثر أن يكون المقام السرديّ مطيّة لإيراد القول. وهذا ما يكشف لنا سرّاً من أسرار الخبر الأدبيّ يتمثّل في انقطاع السرديّة بحلول القول المقصود، ولنأخذ مثالاً على ذلك الخبر الآتي:" حدّث التاريخيّ بإسناد رفعه إلى سَلْم بن قتيبة قال: كنت عند ابن هبيرة الأكبر فقال: فجرى الحديث حتّى ذكر العربيّة، فقال: والله ما استوى رجلان دينهما واحد وحسبهما واحد ومروءتهما واحدة، أحدهما يلحن والآخر لا يلحن، إنّ أفضلهما في الدنيا والآخرة الذي لا يلحن، قال فقلت: أصلح الله الأمير هذا أفضل في الدنيا لفضل فصاحته وعربيته، أرأيت الآخرة ما باله فُضِّلَ فيها؟ قال: إنّه يقرأ كتاب الله على ما أنزله الله، والذي يلحنُ يحمله لحنه على أن يُدْخِلَ في كتاب الله ما ليس فيه، ويخرج منه ما هو فيه، قلت: صدق الأميرُ وَبَرَّ"[١٤]. والواضح أنّ المقام السرديّ الذي افتتح به الخبر والمتمثل في وجود سلم بن قتيبة عند ابن هبيرة والحديث عن العربيّة إنّما جاء مدخلاً لإيراد أقوال سلمة، ولذلك فإنّ الراوي لم يذكر متى جرى اللقاء، ومن كان معهم، وما دار فيه، وما حصل بعد الاستخبار والإخبار. فالسرديّة هنا توقّفت عند قول ابن هبيرة لأنّه مركز الثقل في الخبر وفيه يكمن مبرّر وجوده.

[١٠] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ٢٤/١.
[١١] المصدر نفسه، ١٢٦٥/٣-١٢٦٦.
[١٢] المصدر نفسه، ١٨/١.
[١٣] المصدر نفسه، ٢٠/١.
[١٤] المصدر نفسه، ٢٥/١.

ومن هذا القبيل كذلك:" حدّث أبو القاسم السيرافيّ قال: حضرنا مجلس الأستاذِ الرئيس أبي الفضل فقصَّر رجل بالجاحظ وأزرى عليه، وحلم الأستاذ عنه، فلما خرج قلت له: سكتَّ أيّها الأستاذ عن هذا الجاهل في قوله، مع عادتك بالردّ على أمثاله فقال: لم أجد في مقابلته أبلغَ من تركه على جهله، ولو وافقته وبينتُ له النظر في كتبه صار إنساناً، يا أبا القاسم كتبُ الجاحظ تعلّم العقلَ أولاً والأدبَ ثانياً"[١٥]. وفي هذا الخبر وضع سرديّ قد ظهر في تقصير الرجل بالجاحظ وازدرائه إلّا أنّنا لم نعرف السبب في ازدرائه، ولا ما حصل بعد الازدراء في المجلس. فالخبر وقف عند هذا القول(الاستخبار والإخبار)،ولذلك نجد أنّ البنية الحدثيّة قد توقفت،وإن أدّى ذلك إلى تعطلها واختلالها

غير أنّ ذلك لا يعني أنّ الأخبار جمعيها عند ياقوت تقوم على القول المأثور والأبيات الأجياد ـ وإن كانت تقدّم القول المحكم على البناء المحكم ـ فقد وجدنا كثيراً منها تجمع إلى طريف القول طريف الأحداث، كما في الخبر الآتي:" روى أصحابنا أنّ الجاحظ صار إلى منزل بعض إخوانه فاستأذن عليه، فخرج إليه غلام عجميّ فقال: من أنت؟ قال الجاحظ، فدخل الغلام إلى صاحب الدار فقال: الجاحظُ على الباب، وسمعها الجاحظ ، فقال صاحب الدار للغلام اخرجْ فانظر من الرجل، فخرج يستخبر عن اسمه فقال: أنا الحدقيّ، فدخل الغلام فقال: الحلقيّ، وسمعها الجاحظ فصاح به في الباب: ردَّنا إلى الأول، يريد أنَّ قوله الجاحد مكان الجاحظ أسهل عليه من الحلقيّ مكان الحدقيّ، فعرفه الرجل فأوصله واعتذر إليه"[١٦].

وقد نلتمس بساطة البنية في الأخبار في الحركة السرديّة التي يمكن أن تكون في ثنائيّة الطلب والاستجابة أو الطلب وعدم الاستجابة. وهو ما أُطلق عليه بعض الباحثين ـ مثل محمد القاضي ـ اسم (البنية الطلبيّة) أو (البنية الجوابيّة)، وإذا اعترض الطلب عقبة فإنّه جاز لنا أن نسميه امتحاناً، وبذلك يكون طرف الثنائيّة الثاني إما النجاح أو الفشل. ومن الأمثلة على البنية الطلبيّة:" كان خالد جواداً ممدَّحا، جاءه رجل فقال له: إنّي قد قلت فيك بيتين ولست أنشدهما إلّا بحكمي، فقال له: قل، فقال:

سألتُ الندى والجود حُرَّان أنتما فقالا لي بل عبدان بين عبيد

فقلتُ ومن مولاكما فتطاولا عليّ وقالا خالد بن يزيد

فقال له: تحكَّم، فقال: مائة ألف درهم، فأمر له بها"[١٧]. إنّ مركز الاستقطاب في هذا الخبر هو الشعر الذي توسّل به الرجل للاستعطاء، والأثر الذي تركه في خالد بن يزيد.

وإن كانت هذه الثنائيّة تظهر في عدد كبير من الأخبار التي تقوم على الاستعطاء والتقرّب، وبالمقابل فإنّ هناك أخباراً أخرى مدارها ثنائيّة الطلب وعدم الاستجابة. وممّا يقوم شاهداً على ذلك الخبر الآتي:" حدّث [الصولي] عن ميمون بن هارون عن أبيه قال قلت لإبراهيم بن العبّاس: إنّ فلاناً يجب أن يكونَ ولياً، فقال لي: أنا والله أُحِبُّ أن يكونَ الناسُ جميعاً إخواني، ولكني لا آخذ منهم إلَّا من أطيقُ قضاءَ حقِّه وإلا استحالوا أعداءً، وما مثلهم إلّا كمثل النار قليلُهَا مقنعٌ وكثيرها مُحْرِقٌ"[١٨].

وعلى العكس من ذلك فإنّ هناك جملة من الأخبار تقوم بنيتها البسيطة على ثنائيّة الطلب والتحقق التي تبدأ

[١٥] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ٢١١٦/٥.
[١٦] المصدر نفسه، ٢١٠٧/٥.
[١٧] المصدر نفسه، ١٢٣٩/٣.
[١٨] المصدر نفسه، ٨٢/١.

عادة بتصوير الشدة التي يعاني منها شخص ما، وتنتهي بحصوله على مرغوبه، فهو يتعرض لامتحان يؤول أمره إلى النجاح في تجاوز عقبة، ومن الأمثلة على ذلك الخبر الآتي: " حدّث الخطيب قال: قال الفرّاء: إنّما تعلّم الكسائي النحو على كبر، وسببه أنّه جاء إلى قوم من الهبّاريين، وقد أعيا، فقال لهم: قد عييتُ، فقالوا له: أتجالسنا وأنت تلحن؟ فقال: كيف لحنت؟ قالوا: إن كنتَ أردتَ من الانقطاع الحيلة والتحير في الأمر فقل عَيِيت مخفّفاً، وإن كنت أردتَ من التعب فقل أَعْيَيْتُ، فأنف من هذه الكلمة، ثم قام من فوره ذلك فسأل من يعلّم النحو، فأرشدوه إلى معاذ الهراء، فلزمه حتّى أنفد ما عنده، ثم خرج إلى البصرة فلقي الخليلَ وجلس في حلقته، فقال له رجلٌ من الأعراب: تركتَ أسد الكوفة وتميمها وعندها الفصاحةُ وجئتَ إلى البصرة؟! فقال للخليل: من أين أخذتَ علمك هذا؟ قال: من بوادي الحجاز ونجد تهامة، فخرج ورجع وقد أنفد خمس عشرة قنينةً حبراً في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ، فلم يكن له هم غير البصرة والخليل، فوجد الخليلَ قد مات وجلس في موضعه يونس النحويّ، فمرّت بينهما مسائل أقرَّ له يونس فيها وصدَّره موضعه"[١٩].

كما يقوم عدد من هذه الأخبار ذات البنية البسيطة على المقابلة بين الفعل ورد الفعل، فكثيراً ما ترد هذه المقابلة في صورة المخالفة التي ينجز عنها عقاب أو عفو سواء أمرّ ذلك بواسطة شفاعة أم لم يمر؟ وممّا ينهض شاهداً على المخالفة والعقاب الخبر الآتي:" وكان واصل في أوّل أمره يجلس إلى الحسن البصريّ، فلمّا ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفيرِ مرتكبِ الكبائر وقال الجماعة بإيمانهم خرج واصلٌ عن الفريقين وقال بالمنزلة بين المنزلتين، فطرده الحسن عن مجلسه، فاعتزل عنه، وتبعه عمرو بن عبيد، ومن ثَمَّ سُمّوا وجماعتَهم بالمعتزلة".[٢٠]

ومما ينهض شاهداً على ثنائيّة الفعل وردّ الفعل القائمة على المخالفة والعفو الخبر الآتي:" وكان ابن التلميذ هو وأوحد الزمان أبو البركات هبة الله المعروف بابن ملكا في خدمة المستضيء بأمر الله، وكان بينهما شنآن وعداوة، فأراد أوحدُ الزمانِ أن يوقعَ ابن التلميذ في تهلكة، فكتب رقعةً يذكر فيها عن ابن التلميذ عظائمَ لا تصدرُ عن مثله، ووهب لبعض خَدَمِ القصرِ مالاً ورغب إليه أن يلقي الرقعة في مجلس من مجالس الخليفة ففعل، فلما أخذ الخليفةُ الرقعةَ وقرأها همَّ أن يوقع بأمين الدولة، فأشير عليه أن يتبصَّرَ ويستقصي عن ذلك، فأخذ يقرِّرُ من يتهمه من الخدم عن الرقعة فظهر الأمر، وعلم أنّ ذلك من تدبير أوحد الزمان لإهلاك ابن التلميذ، فغضب وأباح أمينَ الدولة ابن التلميذ دمَ أوحدِ الزمان ومالَهُ وكتبَهُ، فكان من كرم أخلاق أمين الدولة أنّه لم يتعرض له بسوء وصفح عنه"[٢١]. وجليّ الرابط السببي بين خطأ أوحد الزمان أبي بركات وغضب الخليفة، وهذه الصلة السببيّة في هذه البنية تزاوجها صلة تعاقبيّة، وهذا ما يفسر ورود البنية الحدثيّة البسيطة في الأخبار التي يغلب عليها الأفعال. وإنّ ما يعنينا من هذه الأخبار ليس المواضع التي تدور عليها، ولا الأغراض التي تحوم حولها، وإنّما هو أساس البنية الحدثيّة التي تنهض عليها، وهي بنية بسيطة تقوم على فعلٍ وردِّ فعلٍ بينهما رابط سببيّ، أو تعاقبيّ.

ومن الأخبار البسيطة كذلك ما يقوم على المقابلة بين وضعين في مستوى ملفوظات الحالة وملفوظات الفعل، وهي ما يطلق عليه اسم التحويل، أي أنّ الخبر يقودنا من اتّصاف الشخصيّة بسمة إلى اتصافها بعكسها، أو من قيام الشخصيّة بعمل إلى قيامها بنقيضيه، فمن الأوّل (اتّصاف الشخصية بسمة إلى اتّصافها بعكسها)، الخبر الآتي: " قال الخليل بن أحمد: دخلت على سليمان بن عليّ بن عبد الله ووجدته يسقط في كلامه، فجلست حتّى انصرف الناس، فقال: هل حاجة يا أبا عبد الرحمن! قلت أكبر حاجة. قال: قل فإنّ مسائلك مقضيّة ووسائلك قويّة

[١٩] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ١٧٣٨/٤.
[٢٠] المصدر نفسه، ٢٧٩٤/٦.
[٢١] المصدر نفسه، ٢٧٧٢/٦.

فقلتُ:... أراك تسقط في كلامك. وهذا لا يشبه محتدك ومناصبك، قال فكأنّما فقأ في وجهي الرمَّانَ خجلاً. فقال: لن تسمعه بعدها. ثم احتجب عن الناس، وأكبَّ على النظر ثم أذن للناس في مجلس عامّ، فدخلت في لمّة الناس فوجدته يفصح حتّى خلته معدّ بن عدنان، فجلست حتّى انصرف الناس. فقال: كيف رأيت أبا عبدالرحمن؟ فقلت: رأيت كلَّ ما سرّني في الأمير"[٢٢].

وأمّا من الثاني(قيام الشخصية بعمل إلى قيامها بنقيضه)، فشاهده الخبر الآتي:" قال عبدالله بن جعفر: أخبرنا غير واحد عن سلمة بن عاصم صاحب الفرّاء قال: كان بين الفرَّاء والأحمر تباعد وجفاء، فحجَّ الأحمر فمات في طريق مكّة، قيل للفرّاء إنّ الأحمر قد نعي إلى أهله، فاسترجع وتوجَّع وترحَّم عليه وجعل يقول: أمّا والله لقد علمته صدوقاً سخياً ذكياً عالماً ذا مروءة ومودّة، رضي الله عنه، فقيل له أين هذا ممّا كنتَ تقول فيه بالأمس؟ قال: والله ما يمنعني ما كان بيني وبينه أن أقول فيه الحقَّ، وما تعديتُ فيه قط في قول ولا تحريتُ فيه إلّا الصدقُ قبل وإلى الآن"[٢٣]. والواضح في هذه الأخبار أنّها قائمة على تحويل من حالة إلى حالة؛ إذ قُدّمت فيها ملفوظات أوليّة عمل السرد على تغييرها وزحزحتها، لذلك انقلبت صورة (سليمان بن علي) من كثرة اللحن إلى حُسْنِ الإفصاح، وانقلبت أفعال (الفرّاء) من هجاء الأحمر وذمّه إلى مدحه وإسباغ الصفات الحسنة عليه.

ومن الأخبار البسيطة أيضاً ما تقوم بنيته الحدثيّة على بنية يمكن أن نطلق عليها اسم بنية اللغز، وهي تظهر في الأخبار التي تُستهل بحالات وأمثال لا يبين الحافز عليها ولا السرّ فيها. فهي تنطلق من وضع غامض أو مفارق للمألوف أو الواقع، ثم لا تلبث أن تقدّم لنا تفسيراً تؤول به السرديّة إلى الاستقرار، ولنأخذ شاهداً على ذلك الخبر الآتي:" حدث[المرزبانيّ] قال الجاحظ مرّة بحضرة السدريّ: إذا كانت المرأة عاقلة ظريفة كاملة كانت قحبة، فقال له السدري: وكيف؟ قال: لأنّها تأخذ الدراهم، وتمتّع بالناس والطيّب، وتختار على عينها من تريد، والتوبة معروضة لها متى شاءت، فقال له السدريّ: فكيف عقل العجوز حفظها الله؟ هي أحمقُ الناسِ وأقلّهم عقلاً"[٢٤]. فهذا الخبر يبدأ بالنتيجة قدمها الجاحظ، وهي أنّ (المرأة العاقلة الظريفة هي المرأة القحبة)، وهذه النتيجة مخالفة للواقع والأديان السماويّة والأعراف الاجتماعيّة، ممّا أثار في السامع (السدريّ) أو القارئ شيئاً من الاستغراب لم يزل إلّا حين فسّر الجاحظ سببها فانكشف ما كان مستوراً.

والحقّ أنّ هذا البنى الخمس التي وسمناها بالاستخبار والطلب والمخالفة والتحويل واللغز ليست البنى الوحيدة التي وجدناها في مؤلّفات ياقوت الحمويّ وإنّما هي الأكثر تداولاً، فقد وجدنا بنى أخرى منها بنية المناظرة، وتقوم هذه البنية على تردد الكلام بين شخصين يقصد كلّ منهما تصحيح قوله، وإبطال قول صاحبه مع رغبة كلّ منهما في ظهور الحق، فيبدأ كلا الطرفين بإبراز حججه ومسوغاته، محاولاً تفنيد الآراء المضادة، وملتمساً الغلبة على الخصم وإيقاعه في شرك الإحراج والإفلاس المعنويّ،وساعياً إلى إقناع السماع أو القارئ بصواب رأيه، معتمداً في ذلك على مخزون ثرّ من الأدلة. من الأمثلة على بنية المناظرة الخبر الآتي:" أخبرني المنذريّ عن القاسم بن محمّد الأنباريّ عن أحمد بن عبيد بن ناصح قال: كنّا نألف مجلس أبي أيوب ابنِ أختِ الوزير، فقال لنا يوماً- وكان ابن السكيت حاضراً - ما تقول في الأُدْمِ من الظباء، فقال: البيضُ البطون السُّمْرُ الظهور، يفصل بين لون ظهورها وبطونها جُدَّتانِ مِسْكيَّتان، قال: فالتفت إليّ وقال: ما تقول يا أبا جعفر؟ فقلت :الأُدْمُ على ضربين، أمّا التي مساكنها الجبالُ في بلاد قيس فهي على ما وصف، وأمّا التي مساكنها الرملُ في بلاد تميم فهي البيضُ الخوالصُ البياض[فأنكر يعقوب]. واستأذن ابنُ

[٢٢] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ١٢٦٢/٣.
[٢٣] المصدر نفسه، ١٦٧٣/٤.
[٢٤] المصدر نفسه،٢١٠٧/٥.

الأعرابيّ على أثر ذلك، فقال أبو أيوب: قد جاء من يَفْصِلُ بينكم، فدخل فقال له أبو أيوب: يا أبا عبد الله، ما تقول في الأُدْمِ من الظباء، فتكلّم كأنّما ينطقُ عن لسان ابن السكّيت، فقلتُ: يا أبا عبدالله، ما تقولُ في ذي الرمّة؟ قال: شاعر، قلت: ما يقولُ في قصيدة صيدح؟ قال: هو بها أعرفُ منا بها. قال: أنشدته قوله:

مـن المؤلفاتِ الرملِ أَدْمَاءُ حُـرَّةٌ شــعاعُ الضُّـحَى فـي متنـها يتوضَّـحُ

فسكتَ ابن الأعرابيّ وقال: هي العربُ تقول ماشاءت"[٢٥]. وإنّ الأداء الجماليّ يكمن في المناظرة من ملامح الاحتجاج وتوليد التشويق في نفوس السامع والقارئ واستثارتهم، وتلقينهم المعرفة عبر آلية المحاورة وثقافة الانتقاد وتحريك الثنائيات المتقابلة في وعي المتلقّي على خارطة الفكر المسموع، كما أنّها تقوم على تفاعل وتلقين على حدّ سواء، وترتبط بمنهجيّة تقوم على استخلاص المعرفة.

ومن البنى البسيطة كذلك بنية النادرة التي تكون غايتها بعيدة كلّ البعد عن إتمام العلميّة السرديّة وعرض الفكرة المكتملة، وإنّما تكون غايتها إحداث المفارقة قولاً وفعلاً، والتغاضي عن كلّ ما سوى هذا. ومن هذه الأخبار التي تقوم على بنية النادرة ما يكون بناؤها معتمداً على بنية القول ومن الأمثلة على ذلك:" لما استوزر صاعد عقب إسلامه صار أبو العيناء إلى بابه، فقيل له يصلي، فعاد فقيل يصلي، فقال: معذور لكلّ جديد لذة"[٢٦].

ومنها ما يكون بناؤها معتمداً على الحدث والقول معاً، ومن ذلك:" أخبرنا الأزهريّ أخبرنا محمّد بن جعفر التميميّ، أخبرنا الصوليّ عن أبي العيناء قال: كان سبب تحولي من البصرة أنّي رأيت غلاماً يُنادى عليه بثلاثين ديناراً يساوي ثلاثمائة دينار، فاشتريته، وكنت أبني داراً فأعطيته عشرين ديناراً لينفقها على الصنّاع، فأنفق عشرةً واشترى بعشرة ملبوساً له، فقلت: ماهذا؟ فقال لا تعجل فإنّ أرباب المروءات لا يعيبون على غلمانهم هذا، فقلت في نفسي: أنا اشتريتُ الأصمعيّ ولم أدرِ. ثم أردتُ أن أتزوج امرأة سرّاً من بنت عمي فاستكتمته، ودفعت إليه ديناراً يشتري به حوائج وسمك هازبى، فاشترى غيره فغاظني، فقال: رأيت بقراط يذم الهازبى، فقلت: يا ابن الفاعلة لم أعلم أني اشتريت جالينوس، فضربته عشر مقارع فأخذني وضربني سبعاً، وقال: يا مولاي الأدب ثلاث وإنّما ضربتك سبعاً قصاصاً، قال: فرميته فشججته فذهب إلى بنت عمي وقال: الدين النصيحةُ ومن غشّنا فليس منا، إنّ مولاي قد تزوّج واستكتمني فقلت: لا بدّ من تعريف مولاتي الخبر فضربني وشجني، فمنعتني بنت عمي دخول الدار وحالتْ ما بيني وبين ما فيها ومازالت كذلك حتّى طلقتُ المرأة، وسمت بنت عمي الغلام الناصح فلم يمكني أن أكلمه، فقلت أعتقُ هذا وأستريح، فلمّا أعتقته لزمني وقال: الآن وجب حقك عليّ، ثم أنّه أراد الحجَّ فزودته فغاب عشرين يوماً ورجع وقال: قطع الطريق ورأيت حقك قد وجب، ثم أراد الغزو فجهّزته، فلمّا غاب بعتُ مالي بالبصرة وخرجت منها خوفاً أن يرجع"[٢٧].

وإلى جانب هذه البنى البسيطة في الأخبار عند ياقوت الحمويّ من جهة الحركة السرديّة، نجد قيام عدد من الأخبار على البنية المركّبة، ويمكن أن نجد فيما قدمه رولان بارت بشأن بنائيّة سرد القصة مُعيناً في تحديد البناء السرديّ المركّب، إذ ذكر نوعين لهذه البنية هما (بنية التضامن، وبنية التضمين)[٢٨]، وهما أساسان عامان يتوافقان وطبيعة تركيب الخبر.

بنية التضامن: وتقوم هذه البنية على تضامن الوحدات الحكائيّة البسيطة، إلّا أنّ هذا التضامن قد يكون بصورة تراكميّة اعتباطيّة تهدف إلى خلق صور كليّة تصوّر لمحات من حياة شخصيّة ما، وتنقل عدداً من نصوصه البليغة،

[٢٥] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ٣٦٢/١

[٢٦] المصدر نفسه، ٢٦٠٦/٦

[٢٧] المصدرنفسه، ٢٦١١/٦-٢٦١٢.

[٢٨] ينظر: مدخل إلى التحليل البنيويّ للقصص، رولان بارت، د. منذرعياشي، مركز الإنماء الحضاريّ للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣، ص ٥٣.

فيكون الرابط بين هذه الوحدات هو الشخص فقط، أي أنّها تقوم على وحدات مهمشة تعتمد على العامل (الشخصيّة) رابطاً أساسيّاً يجمع بينها، وتعطي نمطاً من السرد قائماً على بناء تراكميّ غير متنامي. وممّا يساعد على عدّ هذه الوحدات لوحةً سرديّةً واحدةً عدم ذكر أسانيد الأخبار في بداية أغلبيّتها، ممّا يزيح الشعور بالبداية والنهاية التي كانت الأسانيد تعمل على تحديدها تحديداً قاطعاً، فيشعر المتلقّي أنّه يقرأ سلسلة مترابطة إذ تدور حول شخصية واحدة. ومن ثم يمكن القول إنّ بنية التضامن تقوم على عدد من الوحدات الحكائيّة التي يمكن الفصل بينها فهي بناء تراكميّ لا يقوم على الحدث، بل هو بناء يقوم على الشخص، ويبرز هذا النوع في التراجم الأدبيّة، فما هي إلّا مجموعة أخبار تخبر عن صفات بعض الشخصيات وأفعالها. وممّا ينهض شاهداً على بنية التضامن: " كان[واصل بن عطاء] متكلماً بليغاً أديباً متفنناً خطيباً، لقّب بالغزال لكثرة جلوسه في سوق الغزّالين إلى أبي عبدالله مولى قطن الهلاليّ. وكان بشار بن برد قبل أن يدين بالرجعة ويكفّرَ جميع الأمّة كثيرَ المديح لواصل بن عطاء وفضّله في الخطابة على خالد بن صفوان وشبيب بن شبة والفضل بن عيسى يوم خطبوا عند عبد الله بن عمر بن عبدالعزيز في العراق، فقال في ذلك:

أبا حذيفةَ قد أوتيتَ معجزةً ... من خطبةٍ بَدَهَتْ من غير تقديرِ

وإنّ قولاً يروقُ الخالدَين معاً ... لمسكتٌ مخرسٌ عن كلّ تحبير

وقال في ذلك أيضاً:

تكلَّفوا القولَ والأقوامُ قد حلفوا ... وحبَّروا خطباً ناهيكَ من خُطَبِ

فقام مرتجلاً تغلي بداهتُهُ ... كَمِرْجَلِ القَيْنِ لما خُفَّ باللهبِ

وجانبَ الراءَ لم يشعرْ به أحدٌ ... قبل التصفّح والإغراقِ في الطلب

وقوله: جانب الراء إشارة إلى لثغة واصل، وكان واصل ألثغ قبيح اللثغة في الراء، فكان يخلص كلامه من الراء ولا يفطن لذلك السامع لاقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه، وفي ذلك يقول أبو الطروق الضبيّ:

عليمٌ بإبدالِ الحروفِ وقامعٌ ... لكلِّ خطيبٍ يغلبُ الحقَّ باطِلُهْ"[٢٩]

وهنا نجد ياقوتاً يسوق عدداً من الوحدات الحكائيّة التي تتعلّق بشخص واحدٍ (واصل بن عطاء)، وهي مجموعة من الحلقات تنتظم بسلكٍ واحدٍ على الرغم من أنّها متباعدة الأزمنة مختلفة الأمكنة؛ إذ يسوقها خبراً واحداً في بناءٍ تضامنيٍّ.

وقد تقوم البنية التضامنيّة المركّبة للأخبار على الجمع بين بنى بسيطة ترد بشكلٍ مترابطٍ، وتنشأ هذه البنية المركّبة من تكرار لبنيةٍ سرديّة بسيطةٍ واحدةٍ أو من جمع بين بنيتين بسيطتين مختلفتين. فمن النوع الأول(الجمع بين بنى سردية بسيطة ذات ثنائيّات سردية واحدة)، تكرار بنية التحويل في خبر المأمون وجاريته مؤنسة:" وكان للمأمون جارية اسمها مؤنسة، وكانت تعتني بأحمد بن يوسف، وكان أحمد بن يوسف يقوم بحوائجها، فأدلَّت على المأمون في بعض الأمور فأنكر عليها، وصار إلى الشماسيّة ولم يحملها معه، فاستحضرت نصرة خادم أحمد بن يوسف وحمّلته رسالة إلى مولاه بخبرها، وسألته التلطفَ لإصلاح نيّة المأمون، فلمّا عرّفه الخادمُ ذلك دعا بدواته وقصد الشماسية فاستأذن على المأمون، فلمّا وصل إليه قال: أنا رسول فأْذنْ لي في تأدية الرسالة، فأنشد هذه الأبيات:

[٢٩] معجم الأدباء ياقوت الحمويّ، ٢٧٩٣/٦-٢٧٩٤.

قد كان عتبك مرّةً مكتوماً فاليومَ أصبحَ ظاهراً معلوما
نال الأعادي سُؤْلَهم لا هُنِّئوا لما رأونا ظَاعناً ومقيما
هبني أسأتُ فعادةٌ لك أن تُرى متجاوزاً متفضلاً مظلوما

قال: قد فهمت الرسالة، فكن الرسول بالرضى، ووجَّهَ بياسر الخادم فحملها"[٣٠]. فقد بُدئ الخبر بوضع أوّلي تمثّل في تواصلهما، ثم آل القول إلى القطيعة سببها أنّها أدلَّت على المأمون في بعض الأمور. فما كان من المأمون إلّا أن سافر إلى الشماسيّة وتركها. ولمّا حدثت القطيعة بينهما سعت مؤنسة إلى استرضائه، فأرسلت مع أحمد بن يوسف أبيات سمعها المأمون، فعادت الألفة بينهما. ففي هذا الخبر نجد حركتان إحداهما من الاتصال إلى الانفصال، والأخرى من الانفصال إلى الاتصال.

أمّا النوع الثاني (الجمع بين بنى سرديّة بسيطة ذات ثنائيّات سرديّة مختلفة) فهو أكثر وروداً من سابقه، وممّا ينهض شاهداً عليه الخبر الآتي:" قال يحيى وحدّثني أبي قال: قال أمير المؤمنين المتوكل يوماً من الأيام: ياعليّ لك عندي ذنب ـ قال هذا ونحن بدمشق ـ قال: فأكبرت ذلك وقمتُ قائماً بين يديه وقلتُ: أعوذ بالله من سخط أمير المؤمنين، ما الذنب يا أمير المؤمنين فلعله كذبُ كاشح أو بغيُ حاسد؟ فقال: لا، أخبرني من أثق به، قال فقلت: يتفضّل عليّ أمير المؤمنين بتعريفي الذنب، فإن كان لي عذرٌ اعتذرت وإلّا اعترفتُ وَعُذْتُ بعفو أمير المؤمنين، فقال: أتحتاج إلى شيء وتسأل غيري؟ فقلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: أخبرني بختيشوع أنَّك وجّهتَ إليه واستقرضتَ منه عشرين ألف درهم فلم فعلت ذلك وما منعك أن تسألني فأصِلَك؟ أتأنفُ من مسألتي؟ فقلت: يا أميرُ المؤمنين لا والله ما منعني ذلك، وإن صلات أمير المؤمنين متتابعةٌ عندي من غير مسألة، ولكن بختيشوع ممن آنس به، فاستعرتُ منه هذه الدراهم على ثقة مني بأنَّ تفضّلَ أميرِ المؤمنين غيرُ متأخرٍ عنّي فأردَّها من ماله. قال فقال لي: قد عفوتُ لك عن هذا هذه المرّة فلا تعد إلى مثلها، وإن احتجتَ فلا تسأل غيري أو تبذل وجهك إليه"[٣١]. إنّ هذا الخبر ذو بنية مركّبة، فهو يبدأ ببنية بسيطة تمثّلت في المخالفة والعقاب(مخالفة علي للمتوكل بسؤال بختيشوع وغضبه منه ثم عفوه عنه)، ثم جاءت بنية بسيطة أخرى تمثّلت في الاستخبار والإخبار(استخبار المتوكل عن سؤال عليٍّ لبختيشوع وإخبار عليٍّ عن ذلك)، ثم تواصل الخبر عبر البنية الطلبيّة من خلال سؤال عليّ لبختيشوع واستجابته له وإعطائه المال. هكذا نجد أن الخبر مركب من ثلاث بنى بسيطة (بنية المخالفة والعقاب، وبنية الاستخبار والإخبار، وبنية الطلب والاستجابة).

على أنّ البنية المركّبة في الأخبار عند ياقوت الحمويّ لا تقف على بنية التضامن أي التأليف بين البنى البسيطة، وإنّما نجد بنية أخرى هي بنية التضمين.

بنية التضمين:

وتعني أن يضمّن السرد نصّاً سرديّاً آخر، ليكون النصّ الأوّل إطاراً للنصّ الثاني، وقد يضمّن النصّ الأوّل(الإطار) أكثر من نصّ داخليّ، وعادةً ما يتشكّل النصّ المضمّن بأسلوب الاسترجاع وهو عرض الأحداث التي قد حدثت الآن قبل القصّة الحاليّة، ومن ذلك:" حدّث أيضاً بإسناد رفعه إلى نصير الرازيّ النحويّ ـ رجل كان بالري ـ قال: قدم الكسائيّ مع هارون فاعتلَّ علّة منكرة، فأتاه هارون ماشياً متفرعاً، فخرج من عنده وهو مغمومٌ جدّاً فقال لأصحابه: ما أظن الكسائيّ إلّا ميتاً، وجعل يسترجع، فجعل القوم يعزّونه ويطيبون نفسه وهو يظهر حزناً فقالوا: يا أمير المؤمنين وما له قضيت عليه بهذا؟ قال: إنّه حدّثني أنّه لقي رجلاً من الأعراب عالماً غزير العلم بموضع يقال له ذو

[٣٠] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ٥٦٦/٢.
[٣١] المصدر نفسه، ٢٠٢٠/٥.

النخيلة، قال الكسائيّ: فكنت أغدو عليه وأروح أمتاح ما عنده، فغدوت إليه غدوة من تلك الغدوات فإذا هو ثقيل ورأيتُ به علّةً منكرة، قال: فألقى نفسه وجعل يتنفس ويقول:

قَـدَرٌ أَحَـلَّـكَ ذا النخيـلِ وقد تـرى وأبــيّ مـالــك ذو النـخـيـل بــدارِ

إلّا كـداركـمُ بـذي بـقـرِ الحمـــى هيـهـات ذو بَـقَــرٍ مــن المـــزدارِ

قال الكسائيّ: فغدوت عليه صباحاً فإذا هو لما به، قال فدخلتُ الساعةَ على الكسائيّ فإذا هو ينشد هذين البيتين فغمَّني ذلك غمّاً شديداً، فكان كما قال، مات من يومه ودفن بمنزله في سكّة حنظلة بن نصر بالري سنة اثنين وثمانين ومائة"[٣٢]. يقدّم لنا هذا الخبر قصةّ إطاراً يضطلع بالبطولة فيها الرشيد والكسائيّ، وقصة مضمّنة بطلها الكسائيّ ورجل من الأعراب. أمّا قصّة الإطار فقد جاءت في قسمين شغل أولهما بداية النصّ، وشغل الثاني نهايته، في حين أنّ القصّة المضمّنة قد جاءت دفعة واحدة. ويظهر التوازي في القصّتين في مستويات أهمّها الأحداث ومدار كلّ منها توقّع كلّ من الأعرابيّ والكسائيّ وقت وفاته، والشخصيات: شخصيتان يدور بينهما حوار. والعلاقة بين القصتين لها ظاهر وباطن، فظاهرها تحكّم قصّة الإطار في القصّة المضمّنة، إذ أنّ القصّة الإطار هي التي أفسحت المجال لانطلاق القصّة المضمّنة، ولكنّ الباطن يشير إلى أنّ القصّة المتضمّنة هي المتسلّطة على الإطار التي أملت عليها نهايتها. وبذلك كان موت الكسائيّ في قصّة الإطار نسخة ممّا جاء في القصّة المضمّنة

وإذا كان الحدُّ الأقصى للتضمين يضمّ ست مراتب ذكر تودوروف نموذجاً منها فيما استمده من كتاب (ألف ليلة وليلة)[٣٣]، فإنّ الأخبار في مؤلّفات ياقوت الحمويّ لا تقدّم لنا في الأغلب الأعمّ إلّا تضميناً بسيطاً قوامه مرتبتان قلّما يتجاوزها إلى ثلاثة، ومن الأمثلة على ذلك الخبر الآتي:" تحدّث الشمشاطيّ عليّ بن محمّد، حدّثني محمّد بن عبدالله، حدّثني عليّ بن الجهم القرشيّ قال: دخلت على المتوكل يوماً وهو جالس وحده فسلّمت عليه فردّ السلام وأجلسني، فحانت مني التفاتة فرأيت الفتح بن خاقان واقفاً في غير رتبته التي كان يقوم فيها، متكئاً على سيفه مطرقاً، فأنكرت حاله، فكنتُ إذا نظرت إليه نظر إلى الخليفة فإذا صرفتُ وجهي نحو الخليفة أطرق، فقال: يا عليّ أأنكرتَ شيئاً؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، فقال: ما هو؟ قلت: وقوف الفتح في غير رتبته التي كان يقوم فيها، قال: سوء اختياره أقامه ذلك المقام، قلت: ما السبب يا أمير المؤمنين؟ قال: خرجت من عند قبيحة آنفاً فأسررتُ إليه سرّاً فما عداني السرّ أن عاد إليّ، قلت: لعلك أسررته إلى غيره يا أمير المؤمنين، قال: ما كان هذا، قلت: فلعلّ مستمعاً استمع عليكما، قال: ولا هذا أيضاً، قال: فأطرقت ملياً ثم رفعت رأسي فقلت: يا أمير المؤمنين قد وجدت له ممّا هو فيه مخرجاً، قال: ما هو؟ قلت: حدّثنا أبو نعيم الفضل بن دكين، حدّثنا المستمرّ بن سليمان عن أبي الجوزاء قال: طلقتُ امرأتي في نفسي وأنا في المسجد ثم انصرفت إلى منزلي فقالت لي امرأتي: أطلقتني يا أبا الجوزاء؟ قلت: من أين لك هذا؟ قالت: خبرّتني جارتي الأنصاريّة، قلت: ومن خبّرها بذلك؟ قالت: ذكرت أنّ زوجها خبّرها بذلك، فغدوتُ على ابن عبّاس فقصصتُ عليه القصّة فقال: علمتُ أنّ وسواسَ الرجل مُحَدِّثُ وسواسِ الرجل فمن ها هنا يفشو السر.

قال أبو نعيم: فكان في نفسي من هذا شيء حتّى حدّثني حمزة الزيّات قال: خرجتُ سنّةً من السنين أريد مكة، فلما جزتُ في بعض الطريق ضَلَّتْ راحلتي فخرجت أطلبها، فإذا باثنين قد قبضا عليَّ أحِسُّ حسَّهما وأسمعُ كلامهما ولا أرى شخصهما، فأخذاني وجاءا بي إلى شيخ قاعدٍ على تلعة من الأرض حسن الشيبة، فسلّمت عليه فردَّ عليَّ السلام، فأفرح روعي ثم قال: من أين، وإلى أين؟ فقلت: من الكوفة أريد مكة، قال: ولم تخلفتَ عن أصحابك؟ فقلت: ضلّت

[٣٢] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ،٤/١٧٥٠-١٧٥١.

[٣٣] ينظر: المدخل إلى الأدب العجائبي، تزفيتان تودوروف، تر: الصديق بوعلام، دار الشرقيات ، القاهرة ، ط١، ١٩٩٤م.

راحلتي فجئت أطلبها، فرفع رأسه إلى قوم على رأسه فقال: زاملة، فأنيخت بين يدي، ثم قال لي، أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: هاته فقرأت حم الأحقاف حتّى انتهيت إلى هذه الآية: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نفراً من الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ﴾[٣٤]، فقال لي: على رسلك تدري كم كانوا ؟ قلت: اللّهم لا، قال: كنَّا أربعة وكنت المخاطِبَ لهم عنه صلّى الله عليه وسلّم، فقلت: يا قوميا أجيبوا داعي الله . ثم قال لي: أتقول الشعر؟ قلت: اللهم لا. قال: أفترويه؟ قلت: نعم، قال: هاته، فأنشدته قصيدة:

أمـن أمّ أوفـى دمنـةٌ لـم تَكَلَّـم بحـومـانـةِ الـــدرّاج فالـمـتـثـلـم

فقال: لمن هذه؟ فقلت لزهير بن أبي سلمى، قال: الجنّي؟ قلت: بل الإنسي مراراً، فرفع رأسه إلى قوم على رأسه فقال: زهير، فأتي بشيخٍ كأنّه قطعة لحم فألقي بين يديه فقال له: يا زهير، قال: لبيك، قال:" أمن أم أوفى" لمن؟ قال: لي؛ قال: هذا حمزة الزيّات يذكر أنّها لزهير بن أبي سلمى الإنسي، قال: صدق هو وصدقت أنت. قال: وكيف هذا؟ قال: هو إلفي من الإنس وأنا تابعه من الجنّ أقول الشيءَ فألقيه في وهمه ويقولُ الشيء فآخذه عنه، فأنا قائلها في الجن وهو قائلها في الإنس. قال أبو نعيم فصدّق عندي هذا الحديثُ حديث أبي الجوزاء، أنّ وسواسَ الرجل يحدّث وسواس الرجل فمن ها هنا يفشو السرّ، قال: فاستفرغ المتوكل ضحكاً وقال: إليّ يا فتح، فصبّ عليه خلعاً وَحُمِلَ على شيءٍ من الظهر وأمر له بمال وأمر لي بدون ما أمر له به، فانصرفت إلى منزلي وقد شاطرني الفتح ما أخذ فصار الأكثر إليّ والأقلّ عنده"[٣٥]. وقد تضمن هذا الخير قصتين مضمنتين: الأولى قصة أبي الجوزاء مع زوجته، والثانية قصة حمزة الزيّات مع الجنّ.

غير أن الأخبار المركّبة لا تقوم على بنية التضامن وبنية التضمين فقط، فقد تقوم على حلقاتٍ ترتبط بعضها ببعض مشكّلة خبراً واحداً، ومن الأمثلة على ذلك: " قصدت أنا والنصيبيّ رجلاً من أبناء النعم والموصوفين بالكرم، لا يردّ سائليه ولا يخيّب آمليه، والألسنُ متفقةٌ على جوده وتطوّله، والعيونُ شاخصةٌ إلى عطاياه وفضله، له في السنة مبارٌ كثيرةٌ على أهل العلم وأهل البيوتات ومن قعد به الزمان وجفاه الإخوان، فلم نصادفه في منزله، وقصدناه ثانياً فمنعنا من الدخول إليه، وقصدناه ثالثاً فذكر أنّه ركب، وقصدناه رابعاً فقيل هو في الحمام، وقصدناه خامساً فقيل هو نائم، وقصدناه سادساً فقيل عنده صاحب البريد وهو مشغولٌ معه بمهمّ، وقصدناه سابعاً فذكر أنّه رَسَمَ أن لا يؤذن لأحد، وقصدناه ثامناً فذكر أنّه يأكلُ ولا يجوز الدخول إليه بوجهٍ ولا سبب، وقصدناه تاسعاً فذكر أنّ أحد أولاده سقط من الدرجة وهو مشغولٌ به عند رأسه ما يفارقه، وقصدناه العاشر فذكر أنّه مستعد لشرب الدواء، وقصدناه الحادي عشر فذكر أنّه تناول الدواء من يومين وما عمل عملاً وقد قوَّاه اليوم بما يحرك الطبيعة، وقصدناه الثاني عشر فقيل إلى الآن كان جالساً ونهض في هذه الساعة ودخل إلى الحجرة، وقصدناه الثالث عشر فقيل دعي إلى الدار لمهمّ، وقصدناه الرابع عشر فألفيناه في الطريق يمضي إلى دار الإمارة، وقصدناه الخامس عشر فسهَّلَ لنا الأذن ودخلنا في غمار الناس، وإذا الناس على طبقاتهم جلوس، وجماعةٌ قيام يرتبون الناسَ ويخدمونهم، وقد اتّفق له عزاء وَشُغْلٌ بغيرنا، وبقينا في صورة احتقان البول الجوع والعطش، وما أُقمنا في جملةِ من يقام، فقال لي النصيبيّ: هذا اليوم الذي قد ظفرنا به وتمكّنّا من دخول داره صار عظيم المصيبة علينا ليس لنا إلّا مهاجرةُ بابه والإعراضُ عنه وقمعُ النفس الدينة بالطمع في غيره، فقلت له: قد تعبنا وتبذلنا على بابه، والأسبابُ التي اتفقت فمنعت من رؤيته كان عذراً واضحاً، ويتفق مثل هذا، فإذا انفضت أيام التعزية قصدناه، وربّما نلنا من جهته ما نأمّله، فقصدناه بعد ذلك أكثر من عشرين مرّة وقلّما اتّفق

[٣٤] سورة الجنّ، الآية :٢٩.
[٣٥] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ،٥/٢١٦٠-٢١٦١.

فيها رؤيته وخطابه، حتّى ملّ النصيبيّ فقال: لو علمت أنّ داره الفردوس، والحصول عنده الخلود فيها وكلامه رضى الله تعالى وفوز الأبد لما قصدته بعد ذلك، وأنشأ يقول:

طَلَبُ الكريم ندى يد المنكودِ كالغيث يُسْتَسْقَى من الجلمودِ

فافزع إلى عزَّ الفراغ وَلُذ به إنّ السؤال يريد وجه حديدِ

فأجبتُهُ أنا وعيناي بالدموع تترقرق، لما بان لي من حُرْقتي ونبؤ الدهر بي وضياع سعيي وخيبة أملي في كلّ ما ارتجيه لملمّ أو مهمّ أو حادثة، أو نائبة:

دنيا دنتْ من عاجزٍ وتباعدت عن كلِّ ذي لبٍّ له حِجْرُ

سَلَحَت على أربابها حتّى إذا وصلت إليَّ أصابها الحصرُ"[٣٦]

وعلى هذا النحو يتقدّم هذا الخبر في حلقات، إلّا أنّ ترادف هذه الحلقات قد جاء في الخبر لإحداث تحوّل تدريجيّ في موقف أبي حيان والنصيبيّ من الرجل وكرمه حتّى كانت النهاية انقلاباً تامّاً للوضع الأوّليّ الذي به افتتح الخبر، إذ انقلبت رغبتهما في لقاء رجل من أبناء النعم والموصوفين بالكرم، والتفاؤل في الحصول على عطاياه، إلى عدم الرغبة واليأس. وقد عبّر الراوي عن هذه الحلقات من خلال ربطها بزمن القصة فلكلّ حلقة فترة زمنية(يوم أو أكثر)، ممّا يشدّ الحلقات بعضها ببعض، ويجعلها تسير إلى غايةٍ واحدةٍ هي إبراز عثرة الحظ، وضياع السعي، وخيبة الأمل.

وهذه بعض البنى البسيطة والمركّبة التي يكثر ورود الأخبار الأدبيّة عليها في مؤلّفات ياقوت الحمويّ. وقد رأينا أنّ قسماً كبيراً من هذه الأخبار إنّما يكتسب مبرّر وجوده من الأقوال المأثورة التي يردّدها، فهو قصّة قول أكثر ممّا هو قصّة فعل.

٢. تسريد الخبر:

ويُقصد بتسريد الخبر أنّ منطلق الخبر قد يكون تسريد لكلام سابق له جيء به في سياق مخصوص ، فعدل به عن مقصده الأصليّ، وأُتخذ مهاداً لعلاقات جديدة ووظائف جديدة وشخصيات جديدة. والتسريد مصطلح يفيد إضفاء صفة سردية على نمط الخطاب ليس في الأصل كذلك[٣٧]، وقصدنا به هنا إكساب ما هو غير سرديّ مثل القرآن والحديث والأمثال والشعر وغيرها سمات وخصائص تجعله سرداً، وإن كان القرآن والحديث والشعر ليست بطبيعتها مجافية للسرد، ففي القرآن قصص، وفي الأمثال قصص، وفي الشعر قصص. إلّا أن السرديّة صفة عارضة في هذه الضروب من القول، في حين أنّها ملازمة للخبر لا قيام له من دونها. ولنتخذ الخبر الآتي نموذجاً على تسريد آيات القرآن الكريم:" وقيل له [ابن ثوابة] ما تقول في محمّد بن مكرم والعبّاس بن رستم؟ فقال: هما الخمر والميسر إثمهما أكبر من نفعهما"[٣٨]. الخبر هنا يقوم على ثنائيّة بسيطة هي الاستخبار والإخبار، فالاستخبار جد، والإخبار هزال ومزح، وإذا أمعنا النظر في هذا الإخبار وجدنا كأنّه نقف خرج من قوله تعالى:﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كبيرٌ ومَنَافِعُ للناسِ وإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[٣٩]. فالآية الكريمة تقوم على الاستخبار والإخبار، وقد خرج الإخبار فيها عبر هذا التسريد في الخبر من مقام المساجلة إلى مقام الفكاهة والهزال.

---

[٣٦] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ١٩٤٤/٥-١٩٤٥.

[٣٧] معجم السرديّات، محمّد القاضي وآخرون، الرابطة الوطنيّة للناشرين المستقلّين، بيروت، ط١، ٢٠١٠م ، ص٩٠، ويطلق بعض الباحثين اسم السردنة على التسريد.

[٣٨] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ٢٦٠٦/٦.

[٣٩] سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

والأمر نفسه يظهر لنا في أخبار أخرى يتمّ فيها تسريد الحديث إذ يأتي الكلام في الحديث في سياق جديد فيوظف في علاقات ووظائف جديدة، وممّا يتّخذ شاهداً على ذلك الخبر الآتي:" خاصم [ابن ثوابة] يوماً علويّاً فقال له العلويّ: تخاصمني وقد أُمرتَ أن تقول اللهم صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد؟ فقال: لكنّي أقول الطيبين الطاهرين فتخرج أنت"[٤٠]. ففي هذا الخبر تسريد لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:(حدّثنا محمّدُ بن المثنى ومحمّد بن بشّارٍ (واللفظُ لابنِ المثنى) قالَا: حدّثنا مُحمّدُ بن جعفرٍ. حدّثنا شُعْبَةُ عن الحكمِ قال: سمعتُ ابن أبي لَيْلَى قال: لقيني كعبُ بنُ عُجْرَةَ فقالَ: أَلَا أُهْدِي لك هديّةً؟ خرجَ علينا رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم. فقلنا: قد عرفْنَا كيفَ نُسَلّم عَلَيكَ. فكيفَ نُصلِّي عليكَ إذا نحنُ صلَّينا في صلاتِنا صلّى الله عليكَ؟ قالَ: قولُوا: اللهمَّ صلِّ على محمّدٍ وعلى آلِ محمّدٍ، كَمَا صَلَّيتَ على إبراهيمَ وآل إبراهيمَ، وباركْ على محمّدٍ وعلى آلِ محمّد، كما باركْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ)[٤١]، وقد خرج هذا الحديث من مقام الاستخبار والإخبار إلى مقام المساجلة والادّعاء، فوُظِّفَ في سياق جديد وعلاقات ووظائف جديدة، فاكتسب خصائص وسمات سردية جديدة.

كما أنّ بعض الأخبار عند ياقوت قد تتجاوز المقام السرديّ الأصليّ الذي تُربط به الأمثال، فتُنشئ مقاماً جديداً يضطلع بالبطولة فيه شخصيّاتٍ جديدةٍ، ومن الشواهد على ذلك:" كان [رسته بن أبي الأبيض الأصبهانيّ] مليحَ الشعرِ أشبهَ الناسِ شعراً ببشار بن برد، حُمِلَ من أصبهان إلى بغداد وأُدخل على زبيدة بنت جعفر زوج الرشيد وكان دميماً، فلمّا رأته قالت: تسمعَ بالمُعَيْدِيّ خيرٌ من أن تراه، فقال رسته: أيّتها السيدة إنّما المرءِ بأصغريه، ثم أنشدها وأخذ جائزتها..." [٤٢]. إنّ المقوّم الأساسيّ للسرديّة في هذا الخبر يتمثّل في إيجاد علاقة تتابعيّة بين مثلين لا صلة في الأصل بينهما، وهذه الزمنيّة الجديدة حقّقت للمثلين بعداً عمليّاً، إذ أخرجتهما من جمود القول إلى حركيّة العمل فأصبح التقابل بينهما دائراً على المظهر والشخص المخبر من جهة، وعلى الجمال والقبح من جهة ثانية، وعلى جلال زوجة الخليفة وتواضع المحكوم من جهة ثالثة.

أمّا الشعر فقد كان من أكثر الفنون الأدبيّة تأثيراً على نشأة الخبر، وكان بينهما علاقة قديمة متقلبة، فقد يضطلع الشعر بدور المثبت لصحة الخبر فهو دليل على وقوع الأحداث وواقعيّة الشخصيات، لذا نجد كثيراً من الأشعار موضوعها متهافت صُنعت استجابة لمقتضيات السرد ولإفق الانتظار، ومن الأمثلة على ذلك الخبر الآتي: " حدّث العطيريّ الشاعر قال: دخلت يوماً على الوزير المغربيّ بالموصل، وهو جالس على ضفة نهر يخرقُ عَرْصَةَ داره، وبين يديه جارية كأنّها فلقة قمر تسقيه وتنادمه، وهو يقول:

نـديـمـتـي جـاريـةٌ سـاقـيـةْ ونـزهـتـي سـاقـيـةٌ جـاريـةْ

فحكيتُ هذه الحكاية لأبي العلاء المعريّ، وأنشدته البيت فقال: هذا هو الطبع لا ما ينعقه ذلك الرجل الذي يقول:

أبـــي ريـقـــه / أوكـــــارهـــا /

أبـاريـقـــه أوكـــــارهـــا

ويعني البستيّ"[٤٣]. جليّ في هذا الخبر أنّ الأبيات التي سيقت فيه كانت ذات موضوعات متهافت، وجيء بها لخدمة الخبر.

[٤٠] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ٢٦٠٧/٦.
[٤١] صحيح مسلم، مسلم بن الحجّاج، دار طيبة، السعوديّة، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٩١-١٩٢.
[٤٢] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ١٣٠٧/٣.
[٤٣] المصدر نفسه، ١١٠١/٣.

إلّا أنّ الشعر قد يكون هو المولّد الحقيقيّ للخبر حتّى نجد أنّ الخبر ليكاد يقتصر دوره على تحويل الشعر نثراً، وهذا يشبه ما يطلق عليه البلاغيون اسم (حل المنظوم)، لنأخذ الخبر الآتي شاهداً على ذلك:" قال الشيخ أبو الوليد حسّان بن محمّد بن الفقيه: كنّا في مجلس القاضي أبي العبّاس ابن سريج سنة ثلاث وثلاثمائة، فقام إليه شيخ أهل العلم فقال له: أبشر أيّها القاضي فإنّ الله يبعث على رأس كلّ مئة سنة من يجدّد لها أمر دينها. وإنّه تعالى بعث على رأس المائة عمر بن عبد العزيز وتوفي سنة ثلاث ومائة، وبعث على رأس المائتين أبا عبدالله محمّد بن أدريس الشافعيّ وتوفي سنة أربع ومائتين، وبعثكَ على رأس الثلاثمائة، ثم أنشأ يقول:

اثنان قد مضيا فبورك فيهما عُمْرُ الخليفةُ ثم خِلْفُ السؤددِ
الشافعيُّ الألمعيُّ محمّدٌ إرثُ النبوةِ وابنُ عمٍّ محمّدِ
أبشرْ أبا العباس إنّك ثالث من بعدهم سقياً لنوبة أحمد ..."[٤٤].

والواضح أنّ ما قام به الخبر هنا أنّه حلّ المنظوم فجاء ترجمة منثورة لِمَا ورد منظوماً في الشعر.

غير أنّ المتأمّل في بعض الأخبار في مؤلّفات ياقوت الحمويّ لا يلبث أن ينتبه إلى أنّ تسريد الشعر قد يتجاوز أحياناً المعطيات الماثلة فيه، بإيجاد مقامات جديدة يدرج ضمنها الشعر، فيغدو فعلاً إلى جانب الأفعال الأخرى التي تنسب إلى الشخصيّة، وهذا ما نجده في الخبر الآتي: " حدّث إسحاق بن إبراهيم قال: جاءني الزبير بن دحمان يوماً مسلماً فقلت له: إلى أين؟ فقال: إنّ الفضل بن الربيع أمرني أن أبكّر إليه لنصطبح، فقلت له: أنت تعرف أن صبوح الفضل غبوقُ غيره، فأقمْ عندي نشرب، ثم قلتُ له:

أقم يا أبا العوّام ويحك نشربِ وَنَلْهُ مع اللاهين يوماً ونطربِ
إذا ما رأيتَ اليوم قد بان خيرُهُ فخذه بشكرٍ واترك الفضلَ يغضبِ

قال: فأقام عندي وسررنا يومنا، ثم صار إلى الفضل فسأله عن سبب تأخره عنه فحدّثه الحديث وأنشده الشعر، فعتب عليَّ وحوَّل وجهه عنّي، وأمر عوناً حاجبه بأن لا يُدْخِلني ولا يستأذن لي عليه، ولا يوصل رقعة إليه، فقلت وكتبتُ بها إلى الفضل:

يقولُ أناسٌ شامتون وقد رأوا مقامي وإغبابي الرواحَ إلى الفضلِ
لقد كان هذا خُصَّ بالفضل مرَّةً فأصبح منه اليومَ منصرمَ الحبلِ
ولو كان لي في ذلك ذنبٌ علمته لقطَّعْتُ نفسي بالملامةَ والعذلِ

وتوصلت حتّى عُرِضَت الأبياتُ عليه، فلمّا قرأها قال: أعجبُ من ذنبه وأشدُّ أنّه لا يرى من نفسه ذنباً بذلك الفعل، فقلت في نفسي: لا أرى أمره يصلحه إلّا حاجبه عون، فقلت لعون:

عونُ ياعونُ ليس مثلك عونُ أنت لي عدةٌ إذا كان كَوْنُ
لك عندي والله إن رضيَ الفضلُ غلامٌ يرضيك أو برذون

فقال: اكتب رقعة وقل شعراً لأعرضه لك عليه، فقلت:

حرام عليّ الراحُ ما دمتَ غضبانا وما لم يعدْ عني رضاك كما كانا
فأحْسِنْ فأنّي قد أسأتُ ولم تزلْ تُعَوِّدني عند الإساءَةِ إحسانا

قال: فأتى الفضلَ بالشعرين جميعاً فقرأهما وضحك وقال: ويحك إنّما عَرَّض بقوله:" غلام يرضيك" بالسوءة، فقال: قد وعدني بما قد سمعت فإن شئت أن تحرمنيه فأنت أعلم، فأمره أن يرسل إليّ، فأتاني رسوله فصرتُ إليه فرضي

[٤٤] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ٢٤١١/٦.

عني ووفيتُ لعون"[٤٥]. إنّ المقاطع النثريّة في هذا الخبر ليست تكراراً للشعر، وإنّما هي إضافة عليه وإن تكن بسيطة ساذجة، والمعاني العامّة التي عليها مدار الأبيات:(فرط المعاناة، والطرد، والرغبة في الوصل) قد سهّلت على الراوي (إسحاق بن إبراهيم) إن ينشئ إطاراً، ويقحم شخصيّات جديدة يقوم بمسرحتها بوجه من الوجوه، وبهذا يتخذ الخبر الشعر تُكَأَة يستند إليها في إحداث انفعال في نفس القارئ أو السامع.

وقد يغدو الشعر في بعض الأحيان منطلقاً ينطلق منه الخبر؛ إذ وجد عدد من الأخباريين في الأشعار مرتعاً خصيباً يولّدون منه ماشاؤوا من الأقاصيص والأخبار، ومن ذلك أنّ أبيات إبراهيم اليزيديّ الذي يقول فيها:

أنا المذنبُ الخطّاء والعفوُ واسعٌ ... ولو لم يكن ذنبٌ لما عُرِفَ العفوُ
سكرتُ فأبدتْ مني الكاسُ بعضَ ما ... كرهتُ وما إن يستوي السكر والصحو
ولاسيّما إذ كنتُ عن خليفةٍ ... وفي مجلسٍ ما إن يليق به اللغو
ولولا حميّا الكاسِ كان احتمالُ ما ... بدهتْ به لا شكَّ فيه هو السرو
تنصّلْتُ في ذنبي تنصُّلَ ضارعٍ ... إلى من لديه يُغْفَرُ العَمْدُ والسَّهو
فإن تعفُ عنّي أُلْفِ خطويَ واسعاً ... وإلا تكنْ عفوٌ فقد قَصُرَ الخطو

قد أوردها ياقوت الحمويّ في كتاب (معجم الأدباء) مرّتين في أثناء ترجمته لإبراهيم اليزيديّ، روى في الأولى أنّ إبراهيم كان يوماً عند المأمون وليس معهما إلّا المعتصم، فذكر المعتصم كلاماً لم يحتمله إبراهيم فأجابه، فغضب المأمون وأخفى ذلك على إبراهيم ولم يظهره، فلمّا جاءه إبراهيم في الغد لم يسمح له الحاجب بالدخول عليه بأمر من المأمون، فطلب دواة وقرطاساً فتمثّل هذه الأبيات[٤٦]. في حين أنّه روى في الثانية: " أنّ إبراهيم اليزيديّ دخل يوماً على المأمون وعنده يحيى بن أكثم القاضي، فأقبل يحيى على إبراهيم يمازحه وهم على الشراب، فقال له فيما قال: ما بال المعلمين ينيكون الصبيان؟ فرفع إبراهيم رأسه فإذا المأمون يحرّض يحيى على العبث به، فغاظ ذلك إبراهيم، فقال: أمير المؤمنين أعلم خلق الله بهذا، فإن أبي أدّبه، فقام المأمون مجلسه مغضباً، ورُفِعَتِ الملاهي وكلّ ما كان بحضرته. فأقبل يحيى بن أكثم على إبراهيم فقال له: أتدري ما خرج من رأسك؟ إنّي لأرى هذه الكلمة سبباً في انقراضكم يا آل اليزيديّ، قال إبراهيم: فزال عني السكر وسألتُ من أَحْضَر لي دواةً ورقعةً فأحضرهما وكتبتُ إليه معتذراً ... الأبيات المتقدّمة، قال: فرضي وعفا عنه"[٤٧]. ويتّضح من هذين الخبرين أنّهما يشتركان في الوظائف الأساسيّة: المخالفة والعقاب، طلب العفو، وفي الشخصيّة المحوريّة: إبراهيم اليزيديّ، وفي الإطار المكانيّ والزمانيّ: وهو مجلس المأمون في إحدى لياليه. وفي الأبيات المستشهد بها والمقام الذي سيقت فيه. غير أنّ المتأمّل في هذين الخبرين لا يملك إلّا أن يقرّ باختلافهما وأنّهما اتخذا من الأبيات مستنداً لهما، فالأبيات فيهما هي النواة الأساسيّة والبذرة التي صاغ منها الرواة هذين الخبرين.

وإذا كان منشأ الخبر كثيراً ما يكون بيتاً أو أبياتاً تمثّل نواته وبذرته، فإنّنا قد نجد ـ في بعض الأحيان ـ بعض الرواة يبدعون الخبر، ويبحثون عن الشعر الملائم له، ويعثرون عليه ـ عادةً ـ في الأشعار التي لا تخصيص فيها، وإنّما مدارها على تصوير العواطف أو القيم الجماعيّة، ومن الأمثلة على ذلك الخبر الآتي:" حدّث المرزبانيّ، حدّث محمّد بن إبراهيم، حدّثنا عبدالله بن أبي سعد الورّاق، حدّثنا النعمان بن هارون الشيبانيّ قال: كان أبو نواس يختلف إلى محمّد بن زبيدة، وكان الكسائيّ يعلّمه النحو، فقال أبو نواس: إنّي أريد أن أقبّل محمّداً قبلة، فقال له

[٤٥] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ،٢/٦٠٦-٦٠٧.
[٤٦] المصدر نفسه، ١/١٦١-١٦٢.
[٤٧] المصدر نفسه، ١/ ١٦٢-١٦٣.

الكسائيّ: إنّ عليّ في هذا وصمةً وأكره أن يبلغَ هذا أميرَ المؤمنين، فقال أبو نواس: إنّك إن تركتني أقبّله وإلّا قلتُ أبياتاً أرفعها إلى أمير المؤمنين، فأبى عليه الكسائيّ وظنّ أنّه لا يفعل، فكتب أبو نواس رقعة:

قل للإمام جزاك الله صالحةً ... لا تَجْمَعِ الدهرَ بين السخلِ والذيبِ
فالسخلُ غِرٌّ وهمُّ الذئب غفلته ... والذئبُ يعلم ما بالسخلِ من طيبِ

ودفعها إلى بعض الخدم ليوصلها الرشيد فجاء الخادم إلى الكسائيّ، فلمّا قرأها علم أنّه شعر أبي نواس، فقال له ويحك: هذا أمرٌ عظيم، سأتلطّفُ لك، فَغِبْ أيام ثم احْضَرْ وسلِّم عليَّ وعلى محمّد فستبلغ حاجتك، فغاب وتحدّث الكسائيّ أنّ أبا نواس غائب، ثم جاء فقام إليه الكسائيّ فسلّم عليه وعانقه، وسلّم أبو نواس على محمّد وقبّله، وقال أبو نواس:

قد أحدثَ الناسُ ظرفاً ... يزهو على كلِّ ظَرْفِ
كانوا إذا ماتوا ما تلاقوا ... تصافحوا بالأكف
فأظهروا اليوم رشفَ الخـ ... ـدودِ والرشف يشفي
فصرتَ تلثم من شئـ ... ـتَ من طريف التحفي..."[٤٨].

وقد ذكر ياقوت في نهاية الخبر أنّ عبدالله بن أبي طاهر قال: "إنّ هذا الشعر الأخير أنشدنيه غير واحدٍ لعبدالصمد بن المعذّل، حتّى خبّرني أبو عليّ الفضل بن جعفر بن الفضل بن يوسف المعروف بالبصير أنّه له، وأنّه قاله بالكوفة في حداثة من سنه، وكان بعيداً من الكذب في ادّعاء مثل هذا من الشعر"[٤٩]. وإنّ هذا الخبر يوحي من قول ابن أبي طاهر إلى الاشتراك في ملكيّة الشعر (بين عبدالصمد بن المعذّل والفضل بن يوسف وبين أبي نواس)، وأنّ هذه الاشتراك كان عن طريق الغصب والسرقة المبيّتة وهذا ما يقوله ظاهر الخبر، أمّا باطنه فيشير إلى أنّ أحد الرواة احتاج إلى هذه الأبيات حين صنع هذا الخبر فوضعها ونسبها إلى أبي نواس.

وإنّ سعي الرواة إلى ابتداع الأخبار لم يقف عند سرقة الأشعار واغتصابها فقط، وإنّما اتّجه إلى وضع الأشعار لها، وهذا ما يفسّر تدنّي مستوى الشعر في عدد من الأخبار، ولنأخذ شاهداً على ذلك ما ورد في الخبر الآتي: " وروى محمّد بن موسى البربريّ عن ابن حبيب قال: إذا قلت للرجل ما صناعتك فقال: معلم، فاصفع، وأنشد ابن حبيب:

إنَّ المعلمَ لا يزالُ معدّماً ... لو كان علمَ آدمَ الأسماءَ
من علم الصبيانَ أَصْبَوْا عقله ... حتّى بني الخلفاءِ والخلفاءَ"[٥٠].

وبهذا تكون حركيّة بين الأخبار والأشعار دائرة، فالشعر يمكن أن يكون أصلاً للخبر، والخبر يمكن أن يكون أصلاً للشعر.

ولئن كان الخبر- كما رأينا - يسرّد القرآن والحديث والأمثال والأشعار، فإنه كان يسرّد كذلك بعض الصور البلاغيّة التي كانت متداولة قبله، ومن ذلك ما نجده في الخبر الذي ذكره ياقوت في أثناء ترجمته للفتح:" ذكر أبو العيناء، قال الفتح بن خاقان: غضب عليَّ المعتصم ثم رضي عنّي وقال لي: ارفع حوائجك لتقضى، فقلت: يا أمير المؤمنين ليس شيء من عرض الدنيا وإن جلَّ يفي برضى أمير المؤمنين وإن قلّ؛ قال: فأمر فحشي فمي جوهراً"[٥١].

[٤٨] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ١٧٤٣/٤.
[٤٩] المصدر نفسه، ١٧٤٣/٤.
[٥٠] المصدر نفسه،٢٤٨٠/٦.
[٥١] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، ٢١٥٩/٥.

إنّ ملء الفم جوهراً أو غيره ليس من طرائق عطاء الملوك عند الفرس أو العرب، وهو في الحقيقة أقرب إلى العقاب والعذاب منه إلى المكافأة والتكريم، لأنّه يؤدّي إلى الموت. غير أنّه استخدم هذه العبارة في هذا الخبر استعارة، فالفصيح الذي خرج من فم الفتح ألفاظاً كالجوهر قيمة وجمالاً ما عسى أن يكون جزاؤه؟ غير جوهر حقيقيّ، فيستوي بذلك الشاعر الذي يهب جواهر ألفاظه والأمير الذي يهب جواهر حقيقيّة. والراجح أنّ الصورة البلاغيّة كان منطلق الخبر إذ سردها ياقوت على نحو أخرجها من حيز المجاز إلى حيز الحقيقة.

وقد يقوم التسريد في أثناء سعيه إلى الإحاطة بكلّ ما يحيط بالخبر من ضروب القول إلى إعادة صياغة بعض مجالات المعرفة الأدبيّة وغير الأدبيّة وتقديمها في قالب جديد، وممّا ينهض شاهداً على ذلك ما ورد في الخبر الآتي:" حدّث العتبيّ قال: قال هشام بن عبد الملك لشبَّةَ بن عقال، وعنده الفرزدق وجرير والأخطل، وهو يومئذٍ أمير: ألا تخبرني عن هؤلاء الذين مزَّقُوا أعراضهم، وهتكوا أستارهم، وأَغْرَوْا بين عشائرهم في غير خيرٍ ولا برٍّ ولا نفع ، أيّهم أشعر؟ فقال شبة: أمّا جرير فيغرفُ من بحر، وأمّا الفرزدق فينحتُ من صخر، وأمّا الأخطل فيجيدُ المدح والفخر. فقال هشام: ما فَسَّرْتَ لنا شيئاً نحصّله، فقال: ما عندي غير ما قلت، فقال لخالد بن صفوان: صفهم لنا يا ابن الأَهتم، فقال: أمّا أعظمهم فخراً، وأبعدهم ذكراً، وأحسنهم عذراً، وأسيرهم مثلاً، وأقلهم غزلاً، وأحلاهم عللاً، الطامي إذا زخر، والحامي إذا زأر، والسامي إذا خطر، الذي إن هَدَرَ قال، وإن خطر صال، الفصيح اللسان، الطويل العنان، فالفرزدق. أمّا أحسنهم نعتاً، وأمدحهم بيتاً، وأقلهم فوتاً، الذي إن هجا وضع، وإن مدح رفع فالأخطل. وأمّا أغزرهم بحراً، وأرقّهم شعراً، وأهتكهم لعدوه ستراً، الأغر الأبلق، الذي إن طَلَبَ لم يُسْبَق، وإن طُلِب لم يُلْحَقْ فجرير، وكلّهم ذكيّ الفؤاد، رفيع العماد، واري الزناد..."[٥٢]. إنّ الأصل في هذا الخبر لا يعدو أن يكون مفاضلةً بين هؤلاء الشعراء الثلاثة. وإنّ الخطاب النقديّ قد حُوّل فيه بوساطة التسريد فأصبح قصة لها إطار مكانيّ وزمانيّ وشخصيّات وأحداث.

خاتمة:

من خلال ما تقدّم نستطيع القول إنّ الظاهرة الأبرز التي تسترعي انتباهنا في الأخبار الواردة في كتاب (معجم الأدباء) لياقوت الحمويّ أنّ القسم الأكبر منها يقوم على بنيّة بسيطة قائمة على ثنائيّة سرديّة واحدة ترد مفردة أو تتكرر في الخبر الواحد، وهذه الثنائيّة هي الخبر والاستخبار. وقد نلتمس بساطة البنيّة في الأخبار في الحركة السرديّة التي يمكن أن تكون في ثنائيّة الطلب والاستجابة أو الطلب وعدم الاستجابة، وعلى المقابلة بين الفعل وردّ الفعل، وعلى ما يمكن أن نطلق عليها اسم بنية اللغز.

وهذه البنى الخمس ليست البنى الوحيدة، وإنّما هي الأكثر تداولاً، فقد وجدنا بنى أخرى منها بنية المناظرة، وبنية النادرة التي تكون غايتها بعيدة كلّ البعد عن إتمام العلميّة السرديّة وعرض الفكرة المكتملة، وإنّما تكون غايتها إحداث المفارقة قولاً وفعلاً، والتغاضي عن كلّ ما سوى هذا.

وإلى جانب هذه البنى البسيطة في الأخبار عند ياقوت الحمويّ من حيث الحركة السرديّة، نجد قيام عدد من الأخبار على البنية المركّبة، ولها نوعان هما (بنية التضامن، وبنية التضمين)، وهما أساسان عامان يتوافقان وطبيعة تركيب الخبر.

أمّا تسريد الخبر فقد وجدنا أنّ منطلق الخبر قد يكون تسريد لكلام سابق له جيء به في سياق مخصوص،

[٥٢] المصدر نفسه، ١٢٣١/٣-١٢٣٢.

فعدل به عن مقصده الأصليّ، وأُتخذ مهاداً لعلاقات ووظائف وشخصيّات جديدة، أي هو إكساب ما هو غير سرديّ مثل القرآن والحديث والأمثال والشعر وغيرها سمات وخصائص تجعله سرداً.

وقد كان الشعر من أكثر الفنون الأدبيّة تأثيراً على نشأة الخبر، وكان بينهما علاقة قديمة متقلبة، فقد يضطلع الشعر بدور المثبت لصحة الخبر فهو دليل على وقوع الأحداث وواقعيّة الشخصيّات، وقد يكون هو المولّد الحقيقيّ للخبر حتّى نجد أنّ الخبر ليكاد يقتصر دوره على تحويل الشعر نثراً، وهذا يشبه ما يطلق عليه البلاغيون اسم (حلّ المنظوم)، وقد يغدو فعلاً إلى جانب الأفعال الأخرى التي تنسب إلى الشخصيّة، وقد يغدو في بعض الأحيان منطلقاً ينطلق منه الخبر؛ إذ وجد عدد من الأخباريين في الأشعار مرتعاً خصيباً يولّدون منه ماشاؤوا من الأقاصيص والأخبار.

وهكذا نجد أنّ عدداً من الأخبار التي ذكرها ياقوت الحمويّ في مؤلّفاته عموماً وكتاب (معجم الأدباء) خصوصاً، كانت تستمد جذورها من فنون القول الأدبيّ وغير الأدبيّ ومن المعارف ومظاهر الثقافة السائدة، فتمتصّها جميعاً ثم تسرّدها، وبهذا تجد لها محلاً بين هذه الفنون والمعارف يختصّ بها دون غيرها.

المصادر والمرجع:

القرآن الكريم

١. أدبيّة النصّ السرديّ عند أبي حيّان التوحيديّ، حسن إبراهيم الأحمد، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٩م.

٢. أساس البلاغة، جار الله الزمخشريّ، دار الكتب المصريّة، مصر، ١٩٢٢م.

٣. صحيح مسلم، مسلم بن الحجّاج، دار طيبة، السعوديّة، ط١، ٢٠٠٦م.

٤. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت.

٥. المختار من نوادر الأخبار، محمد أحمد المقّري، تح: يونس لشهب، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠١٥م.

٦. المدخل إلى الأدب العجائبي، تزفيتان تودوروف، تر: الصديق بوعلام، دار الشرقيات ، القاهرة ، ط١، ١٩٩٤م.

٧. مدخل إلى التحليل البنيويّ للقصص، رولان بارت، د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاريّ للدراسات والترجمة والنشر، حلب، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣.

٨. معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، تح: إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٩. من أشكال السرد العربيّ القديم: الخبر الأدبيّ، جمال حسين حمّاد ، مجلة البيان، الكويت، العدد ٤٨٣، ٢٠١٠م.

١٠. مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، د.ت.

١١. موسوعة السرد العربيّ، عبدالله إبراهيم، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.